



د. عبد الحليم الحسيني

الإيرانية للاختراق تمثل تهديدا لأمن المجتمع الذي ينبغي أن لا تتهاون فيه لذا فإن المطلوب هو مراقبة مصادر التمويل والاتصالات الخاصة بكل من نجحت إيران في استقطابهم طائفا أو حتى سياسيا لتحول بينهم وبين تنفيذ مخططاتهم.

ويأتي ضمن مسؤولية الدولة أيضا تفعيل دور المجلس الأعلى للطرق الصوفية الذي يشرف على هذه الطرق فيقوم بدوره الرقابي لمتابعة أنشطة الطرق ومشايخها وضبط العلاقات الخارجية لها ومن ثم منع تحول أي طريقة إلى قناة مستقلة لنفوذ شيعي أو سياسي أجنبي.

ومع أهمية دوري كل من الأزهر والدولة إلا أن المسؤولية الأهم ملقاة بالأساس على عاتق الدعاة والإعلاميين كونهم في حالة تواصل دائم مع الجماهير ولهم التأثير الأكبر عليهم وهو ما يلزمهم بالعمل بشكل منظم ومكثف لتوعية الجماهير بخطورة ما يحاك لهم من ناحية وبالرد على الشبهات والأكاذيب التي يحاول الشيعة وأتباع إيران الترويج لها من ناحية أخرى.

الشيوعي كما تحدث ولايتي عن «دعم الصوفية». ومن القرائن أيضا على مدى الصلة بين العزمية وإيران أنه في يوليو ٢٠١٤ حضر وفد دبلوماسي إيراني الإفطار السنوي للطرق الصوفية الذي أقيم في مقر الطريقة بحي السيدة زينب بالقاهرة برئاسة توفيق الصمدي المستشار السياسي لمكتب رعاية المصالح الإيرانية بالقاهرة فيما كان من الحضور حاتم عنان شيخ الطريقة العنانية^(٥) ولا يقتصر الإختراق على الطريقة العزمية، إذ أعلن ائتلاف الطرق الصوفية، عن الكشف عن طريقة صوفية جديدة غير مسجلة في المشيخة العامة للطرق الصوفية تدعى «الطريقة الحسينية الأممية ترؤج للمذهب الشيعي في صعيد مصر عبر «داعية» بأحد المساجد الكبرى بمركز صدفة في مدينة أسيوط جنوبي البلاد تحت غطاء التصوف، مستغلا جهل الناس ومحبة أهل الصعيد لآل بيت رسول الله»^(٦).

تحصين الساحة

محاولات الاختراق الإيراني للمتصوفة في مصر لا تزال قائمة حتى اللحظة، ومشاركة د. عبد الحليم الحسيني في عزاء خامنئي قبل شهر مثال ساطع لذلك، ولذلك فإن بقاء هذا الوضع على حاله لا ينبغي أن يترك للمصادفة فمواجهة محاولات النفاذ إلى البيئة السنية تحتاج إلى وعي مؤسسي يقطع الطريق على أسباب الاختراق قبل أن تتحول إلى ظاهرة يصعب احتواؤها.

وتتوزع المسؤولية هنا على المؤسسات الدينية كـ«الأزهر» فضلا عن الدولة المصرية للذان وجب أن يعيا أهمية أن لا تتحول دعاوى الحوار والتقريب إلى غطاء لنشاط طائفي أو سياسي إيراني يستهدف إعادة تشكيل البيئة الدينية المصرية.

وتتجسد مسؤولية الأزهر باعتباره جامعة دينية سنية في الحضور بصورة أكثر وضوحا في هذا الملف الشائك لا بالخطاب التحذيري وحده وإنما بإنتاج معرفة علمية دقيقة بالفرق الشيعية لكشف حقيقة أفكارها بالاستناد إلى كتبها وشرح نقاط الاختلاف وتفكيك مواطن الالتباس التي يمكن أن يستغلها الخطاب الشيعي الوافد. أما الدولة المصرية فمسؤوليتها مختلفة إذ المحاولات

٥ - جريدة المصري اليوم، 23/7/2014، <https://2u.pw/GbeBg7>

٦ - وكالة الأناضول، ٢٠١٣/٥/٢٤، <https://2u.pw/f1KCGz>

اقتبسته من الآثار، وتتبعته من الأخبار»، ثم يذكر أنه سماه «الهيئة السنية في الهيئة السنية»، والمقصود بـ «علم الهيئة» هنا التصور القديم لبنية العالم والسماء والأرض وما يرتبط بها. ويظهر من فهرس الرسالة أن السيوطي تناول العرش والكرسي، وما بين العرش والسماء السابعة، والسموات السبع والأرضين، والشمس والقمر والنجوم، والليل والنهار، والهواء والرياح، والرعد والبرق والصواعق، والقوس، والجبال، والبحار، وغيرها.

فالكتاب في جوهره موسوعة أثرية صغيرة في وصف الكون، وليس كتاباً فلسفياً يبني تصوره للوجود على الفيض، أو الحلول، أو الاتحاد، أو أن العالم هو تجلٍ للذات الإلهية. وهذه الملاحظة أساسية لفهم قيمته العقديّة.

الكون في المخطوطة: خالق ومخلوق

أبرز ما يواجه القارئ في النص هو الفصل الواضح بين الله الخالق وبين العالم المخلوق:

فالعرش مخلوق، والكرسي مخلوق، والقلم مخلوق، والسموات مخلوقة، والأرض مخلوقة، والشمس والقمر والنجوم والجبال والبحار كلها داخلية في عالم الخلق.

وينقل السيوطي في باب العرش آثراً منها: «خلق الله أربعة أشياء بيده: آدم، والعرش، والقلم، وجنة عدن»، ثم يذكر أن سائر الخلق كان بقوله: «كن».

وفي باب بدء الخلق ينقل: «إن الله كان عرشه على الماء، وخلق السماوات والأرض بالحق، وخلق القلم».

وهنا تظهر حقيقة مركزية في توحيد الإسلام: فالله ليس جزءاً من العالم، ولا العالم جزءاً منه، ولا الموجودات امتداداً لذاته سبحانه؛ بل الله خالق، وما سواه مخلوق. وهذا هو الأصل الذي يهدم جميع التصورات التي تذيب الحد الفاصل بين الخالق والمخلوق، كما في عقيدة وحدة الوجود التي نادى بها ابن عربي والحلاج وغيرهما.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، فالكون كله - بما فيه الأنبياء والملائكة والأولياء والصالحون - داخل تحت اسم «المخلوق»، ورب العالمين وحده هو الخالق.

العرش والاستواء: دلالة أخرى في النص

ينقل السيوطي ضمن الروايات التي جمعها في باب الخلق: «إن الله خلق العرش فاستوى عليه»، كما يورد في وصف السماوات رواية فيها: «إن الله على عرشه؛ وعرشه على سماواته»، ولا يعني إيراد هذه الروايات الحكم بصحة

جميع أسانيدها، وإنما تكمن أهميتها هنا في بيان الإطار العقدي للنص؛ فالرسالة لا تقدم تصوراً حلولياً يكون فيه الرب حالاً في المخلوقات، بل تبني خطابها على التمييز بين الرب سبحانه وبين خلقه. وهذا يتوافق مع ما تواتر في القرآن من ذكر استواء الرحمن على العرش: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]. وأهل السنة يُثبتون ما جاءت به النصوص، من غير تمثيل ولا تكييف، مع تنزيه الله تعالى عن مشابهة المخلوقين: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

ملاحظة منهجية ضرورية: ليست كل روايات المخطوطة صحيحة

فالسيوطي في هذه الرسالة جامع للروايات والآثار، وليس كل ما جمعه حجة في العقيدة أو العلم، بل هو نفسه ينبّه ويشير إلى ضعف بعض المرويات؛ فهناك روايات يصف سندها بأنه واهٍ، كما أن المحقق يذكر في بعضها أنه لم يقف على تخريجها.

وفي الكتاب أخبار وأوصاف كونية مأخوذة من الإسرائيليات، ولا يصح جعلها حقائق علمية بمجرد وجودها فيه، لأن المقرر عند العلماء قبول ما صح عن رسول الله ﷺ في أمور الغيب فقط، وما كان من آثار السلف نظر في إسناده ودلالته، وما كان ضعيفاً أو من الإسرائيليات فلا تُبنى عليه عقيدة. وهذا المنهج يحمي تراث السيوطي نفسه من أن يتحول إلى مادة مقدسة لا يجوز نقدها.

أين تظهر المفارقة مع بعض التصوف المعاصر؟

حين ننقل من تصور السيوطي الذي يجعل الخلق كله تحت سلطان الله وحده فقط، إلى أمثلة عديدة من الخطاب الصوفي المعاصر تظهر المفارقة بوضوح:

فالطريقة الصديقية الشاذلية مثلاً تعرّف نفسها رسمياً بأنها طريقة صوفية سنية، وتعلن التزامها بالشريعة الإسلامية، وفي الوقت نفسه نجد من شيوخها دفاعاً صريحاً عن عبارات مثل: «مدد يا رسول الله» و«مدد يا حسين»، والتي تشرك مع الله عز وجل أحداً آخر في التحكم بالكون ولو كان أفضل الأنبياء.

وهنا تحديداً يقع الخلاف العقدي الحقيقي، فالمشركون الذين واجههم القرآن لم يكونوا جميعاً ينكرون أن الله هو الخالق. قال تعالى: ﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، فالمشكلة لم تكن دائماً

في بعض صور التدين الصوفي المعاصر: فقد يُقر أصحابها نظريًا بأن الله خالق كل شيء، ثم تتجه السنة بعضهم في حال الشدة إلى مخاطبة الأموات بطلب الغوث والممد.

المفارقة الكبرى: اسم «التصوف» لا يكفي لحفظ التوحيد

ربما كان أهم درس تقدمه هذه المخطوطة اليوم أن الانتساب إلى تراث ديني لا يضمن وحده سلامة الممارسة، فيمكن لجيل أن يحفظ الكتب ولا يحفظ مقاصدها، وأن يرفع أسماء العلماء لكنه لا يلتزم أصول الوحي التي كانوا يستدلون بها، وأن يتحدث طويلاً عن «الأسرار» و«الأنوار» و«الأولياء»، بينما الأصل الذي ينبغي أن يسبق ذلك كله هو: لمن يكون الدعاء؟ لمن يكون الخوف والرجاء؟ ممن يطلب الغوث فيما لا يقدر عليه إلا الله؟

وهنا تأتي كلمة التوحيد لتعيد ترتيب المشهد كله: لا إله إلا الله. ليست شعارًا صوفيًا، ولا سلفيًا، ولا حزبيًا، وإنما هي أصل الإسلام نفسه. ومعناها ليس مجرد الاعتراف بأن الله موجود أو بأنه خالق السماوات والأرض، وإنما إفراده سبحانه بالعبادة. فلا يُدعى دعاء عبادة إلا الله، ولا يُطلب كشف الكرب الغيبي إلا منه، ولا يُنذر إلا له، ولا يذبح عبادة إلا له، ولا يُتعلق قلب العبد تعلق عبادة إلا به سبحانه.

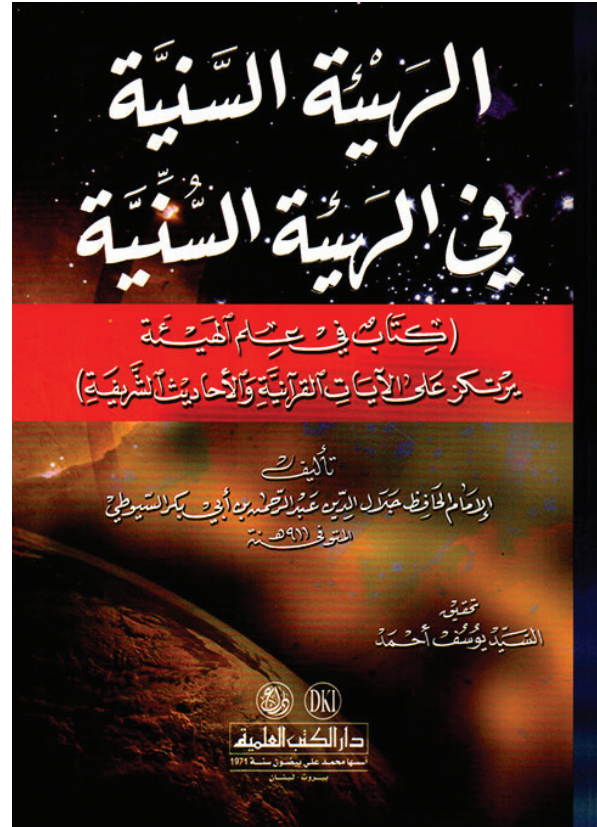
خاتمة

تكشف قراءة «أسرار الوجود» للسيوطي عن نص تراثي شديد الارتباط بعالم الرواية والمأثور، يحاول صاحبه أن يرسم صورة للكون من خلال ما جمعه من الآيات والأحاديث والآثار، وهي تحمل معنى مركزيًا: الكون مخلوق لله، وتدبيره لله، وأمره لله.

في مفارقة واضحة مع بعض الخطاب الصوفي المعاصر الذي يمنح الصالحين سلطة التصرف والملك والتسخير للكون عبر طلب السؤال والممد والاستغاثة بهم بعد موتهم.

ولهذا فإن التجديد الحقيقي لأي خطاب إيماني لا يكون بكثرة الحديث عن الأسرار والمقامات والأنوار، وإنما بالعودة إلى الأصل الذي جاءت به جميع الرسل: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود: ٨٤].

فإذا حفظ هذا الأصل، استقام بعده طريق التزكية والعبادة، وإذا اختل هذا الأصل، فلن تصححه كثرة الأوراد، ولا الأسماء، ولا الطرق، ولا الانتساب إلى الأولياء، فالتوحيد قبل الطريق، والدليل قبل الذوق، والسنة قبل الوجد.



في سؤال: من الخالق؟ بل في سؤال آخر: من تدعو؟ ومن تستغيث به؟ ولمن تصرف العبادة؟ ولهذا قال الله: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، وقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأحقاف: ٥]، وقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

ومن هنا يقرر الاتجاه السني الأثري أن طلب الدعاء من الحي الحاضر القادر شيء، ونداء الميت والغائب وطلب الغوث منه شيء آخر، وأن مجرد القول بأن «الله هو الخالق الحقيقي» لا يجعل توجيه الدعاء إلى الميت مشروعًا.

المخطوطة وتوحيد التعلق

إذا أعدنا قراءة «أسرار الوجود» من هذه الزاوية فسنلاحظ شيئًا مهمًا للغاية: وهو غياب دور الأولياء والأقطاب عن تصور الوجود عند السيوطي! فهو يربط السماء والعرش، والقلم، والرياح والأنهار، وتدبير الكون بأنها من خلق الله أو أمره أو تسخيرها أو تدبيره سبحانه وتعالى.

فأين الأولياء الذين يدبرون الكون؟ وأين الأقطاب الذين تتوقف عليهم حركة العالم؟ وأين فكرة أن الممد الغيبي يُطلب من فلان وفلان؟ ليس هذا هو البناء الذي تقوم عليه الرسالة.

بل بناء رسالة السيوطي هو: الله يأمر، والمخلوق ينفذ. الله يخلق، والمخلوق مخلوق. الله يدبر، والمخلوق مفتقر. بينما